الفلسفة بين النهاية والاستمرار

بقلم : د / نوال بورحلة
أستاذة محاضرة (ب)
جامعة الجزائر -2-

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى توضيح مسألة في غاية من الأهمية، و هي هناك فعلا موتا للفلسفة ؟ كما ادعى بعض المناطقة و الفلاسفة، و حجتهم في ذلك أنها فكر لم يعد بمقدوره التفاعل مع متطلبات العصر، و بالتالي فهذا الفكر يعيش في حالة احتضار. أم أن الفلسفة بوصفها نشاطا فكريا إنسانيا و بما تملك من حس نقدي قادرة على التنوير و التوجيه و التنبيه ؟

عندما نستعرض المشهد الفكري عبر محطاته التاريخية يستوقفنا، من حين إلى آخر، صدور الحكم على الفلسفة بالنهاية، فتارة استند الحكم إلى شرعية دينية على أساسها أتهم من يشتغلون بالفلسفة بالكفر والزندقة والخروج عن تعاليم الدين، وتارة أخرى استند الحكم بنهايتها إلى العقل بحجة أن في التقيد بالعقل والاحتكام إلى الممارسة النقدية إغراقا في التأمل وابتعادا عن حلول العملية.وفي كثير من الأحيان استند الحكم بنهايتها إلى نجاح العلم خاصة في القرن العشرين واكتساحه مجالات الحياة، الأمر الذي جعله- العلم- يحتل المقام الأول من الاهتمام وهذا على حساب باقي الفروع المعرفية والفكرية.

مما لا شك فيه أن عصرنا هو عصر سيادة العلم، لقد نفذ العلم بشكل يدعو إلى الدهشة إلى عمق حياتنا اليومية، فأصبح بهذا الاعتبار مرجعية أساسية في تحديد تصورنا عن العالم والله والإنسان والطبيعة. لقد أصبح العلم بما حققه من مكاسب -سواء كان على مستوى العلوم الفيزيائية أو على مستوى البيولوجيا أو حتى على مستوى المعلوماتية- مرجعية من خلاله تتحدد قيمنا وسلوكنا و توجهاتنا السياسية والاقتصادية والإيديولوجية. لقد أزاح العلم الإنسان من المشهد التاريخي وكف الإنسان أن يكون محور هذا العالم وغايته الأولى، وبسقوط الإنسان سقطت معه بعض القيم التي

اتخذتها بعض التيارات الفكرية - الانسانوية مثلا- منطلقا لتأسيس فلسفي تأطر به نظرتها إلى التاريخ، والعقل، الإنسان، وإلى القيم مثل الأخوة، المحبة، والكرامة. وانطلاقا من هذه الفكرة دخل العالم في مفارقة مثيرة فرضها التوجه العام السائد وسياسة الدول المالكة للتكنولوجيا، و مفاد هذه المفارقة أن العلم اليوم هو الذي بإمكانه صناعة الإنسان والتاريخ وليس الإنسان.

ولم تكن الفلسفة بوصفها نشاطا فكريا ونقديا بمعزل عن هيمنة العلم. ذلك أن الشغف بالعلم وما حققه من نتائج أدى إلى عزل الفلسفة إلى درجة جعلت كل من يحمل اسم الفلسفة يواجه انتقادات لاذعة، فهمشت الفلسفة وانتقدت وأعلنت ثورة ضدها ومنه أعلن عن نهايتها و نهاية الميتافزيقا. وكفت الفلسفة تحت هيمنة العلم عن التطلع إلى أن تستعيد دورها الريادي و النتيجة المترتبة على ذلك أنها أصبحت في القرن العشرين – بعدما حدد نشاطها- مجرد تابعة أو خادمة للعلم بعدما كانت تتصدر المعرفة.

تعرضت الفلسفة في الفترة المعاصرة إلى كثير من الانتقادات، وهذا على الرغم من الدور الهام الذي لعبته طيلة مسيرتها الفكرية والنقدية والحوارية مع مختلف الميادين المعرفية ولا سيما العلم. فتارة وصفت الفلسفة بأنها أفكار وادعاءات كاذبة، وفكر ليس لها مضمون ولا موضوع لتكون بهذا المعنى عبارة عن أفكار تكرر بعضها البعض كما عبر عن ذلك " التوسر"، وتارة وصفت بأنها فكر تجاوزه الزمن وعليه لا بد من العمل على إزاحته كما عبرت عن ذلك الوضعية المنطقية؛ هذه الأخيرة التي تستند إلى الممارسة العلمية بصفتها السيّاق الذي يبرر وجدودها. ويتضح هذا في البيان التي[*] نشرته عام 1929. إذ من خلاله تم الإعلان عن ظهور تصور علمي للعالم يقوم على أسس منطقية وعقلية وليس على تأويلات ميتافزيقية.

لقد كان لحركة فينا اختياران إما العمل على استبعاد الفلسفة-الميتافزيقا- وإما حصرها في ميدان ضيق وهو تحليل لغة العلم. وقد استقرت الوضعية على الاختيار الثاني في أن تصبح مهمة الفلسفة هي تحليل لغة العلم. ونجد تأكيد لهذه الفكرة لدى "كارناب" **(R.Carnap)**. أحد أعضاء حركة فينا الذي يرى أن مهمة الفلسفة هي تناول لغة العلم بالتحليل والتفسير إذ يقتصر

عملها على التحليل المنطقي لجمل العلم و أفاهيمه، وفي هذا الإطار يقول: «يجب استبدال الفلسفة بمنطق العلم أي بالتحليل المنطقي لمفاهيم العلوم وجملها، لأن منطق العلم ليس سوى النحو المنطقي للغة للعلم».[1] ويقصد "كارناب" بـــ " النحو المنطقي للغة"...نظرية الصور اللّغوية لتلك اللّغة، أي البيان المسستم لقواعد الصورية التي تحكمها، وفي الوقت نفسه تطوير النتائج التي تنبع من هذه القواعد.[2] انطلاقا من هذه الفكرة أصبحت مهمة الفلسفة عند الوضعية المنطقية ليس بناء الأنساق الفلسفية المتكاملة ولا التوصل إلى معتقدات فلسفية معينة ولكنها نشاط يحلل بنية العلم والتصورات الأساسية فيه. أي أنها تهتم بالتحليل المنطقي للقضايا (**propositions**) والمفاهيم المتعلقة بالعلم التجريبي. سمح هذا التعريف للفلسفة بتحديد وبطريقة أكثر دقة ووضوح وظيفة الفلسفة ومجال عملها، وهذا بالمقارنة مع الفلسفة التقليدية. وضمن هذه الرؤية يرى "كارناب" أن مجال عمل الفلسفة متعلق ومرتبط بالعمل التجريبي؛ أما وظيفتها فهي توضيح القضايا العلمية وتحديد معانيها.[3]

ترى الوضعية المنطقية أن العلم وحده كاف للوصول إلى المعرفة الكونوالتقيد بالمنهج العلمي يسمح بالقضاء على كل التفسيرات المتافزيقية التي هي في حقيقة الأمر تأويلات وهمية دون أي محتوى علمي.لقد سمح المنهج العلمي حسب الوضعية المنطقية بكشف زيف إدعاءات الميتافيزيقا على أن في متناولها البحث في كنه الأشياء. لكن وحسب هذه الحركة أثبت العلم أنه يمكن البحث عن الحقيقة دون أن يكون هناك أي داع إلى معرفة متعالية وعميقة.

ما هو جدير بالذكر أن طرح أعضاء حلقة فينا لفلسفة أساسها الفهم العلمي للعالم لم يأت من فراغ، بل كان بمثابة طبيعية للتصورات التي استجدّت في مختلف ميادين العلم والتي جعلت من الضروري تصور فلسفة علمية موازية[4]. لقد وجد أعضاء حلقة فينا في التطور العلمي الدعم اللازم لتصوراتهم العلمية، مما سهل الأمر لهم في فرض هيمنتهم في مجلات فكرية هامة في الفكر الغربي ونشر توجههم الفكري- التخلص من الميتافزيقا واتخاذ العلم منهجا- في ميادين معرفية مختلفة مثل الفيزياء، علم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد. وفيما يخص تأسيس علم الفيزياء، عملت الحركة

على تطهير هذا العلم من الشوائب الميتافزيقية، وهذا بواسطة طرق علمية وبشكل خاص وفق مسلمات وفرضيات يتحقق من صدقها في الواقع. فإذا أردنا التوصل إلى القوانين التي يخضع لها العلم فلا سبيل أمامنا حسب حركة فينا إلا البحث الذي يقوده العلم التجريبي وليس إلى ما يفرضه علينا العقل البشري من تطورات. وقد عمل" ماخ " الذي يعد الأب الحقيقي لحلقة فينا على تنقية الفيزياء وبشكل عام النظريات العلمية من الميتافزيقا.

لقد طرح " ماخ" العديد من الأسئلة حول عمل الفيزياء مثل: ما هي الأسباب التي تجعلنا نقبل بنظرية فيزيائية؟. ما هي المشاهدة؟. ما هو القياس؟. ما هو القانون العلمي وغيرها من الأسئلة التي تصنع موضوع تساؤل علم الفيزياء. انطلاقا من هذه الأسئلة بدأ "ماخ" سلسلة من أبحاث علمية مخصصة للبحث في قوانين ومبادئ مختلف فروع الفيزياء. وكانت الفكرة الموجهة لهذه الأبحاث هي أن يقين نظرية ما يأتي فقط من المشاهدة، أي من الأحاسيس وبما أن النظرية حسب "ماخ" تتضمن خليط من المشاهدات والتصورات التي لا تربطها بالمشاهدة أي صلة، فيجب في هذه الحالة تنقية النظريات الفيزيائية من كل عنصر لا يمكن مشاهدته، فالنظرية في رأيه ليست سوى تنظيم لأفعال ومعطيات المشاهدة. إن الصلة الوحيدة بالواقع تتم بواسطة الأحاسيس، فالأحاسيس هي المعطيات النهائية التي تقوم عليها معرفتنا ولا وجود لمعطيات خلف الأحاسيس، كالجوهر، والشيء في ذاته، العلّية، وفكرة القوة، فكلها مفاهيم ميتافزيقية ينبغي استبعادها من مجال العلم.[5]

وبالنسبة إلى علم النفس فقد ساد اعتقاد مفاده أن هذا العلم فقد موضوع دراسته وهو الروح الإنسانية، هذه الروح التي تضاءل مجال الاهتمام بها نظرا إلى ظهور الفيزيولوجيا التي حققت نتائج هامة في فهم الإنسان. إن السلوكية تقوم على محاولة تفسير كل ما هو نفسي برده إلى سلوكيات جسدية يمكن إدراكها حسيّا، يكون بهذا المعنى السلوك الجسدي معطى أساسي في فهم الإنسان. ويعد - نذكر على سبيل المثال لا الحصر- "هربت فايجل **"Herbet feigel"**[*]. أحد الأعضاء الذين اهتموا بعلم النفس حيث سعى في أبحاثه إلى تفسير الإنسان عن طريق ما يصدر عنه – الإنسان- من أفعال وسلوكيات، وقد استعان" فايجل " لتدعيم وتعزيز أبحاثه بأحدث ما توصل

إليه العلم و لاسيما في مجال علم الفيزياء. انطلاقا من هذا بنى موقفه على أن الحالات الذهنية الخاصة بنا مرتبطة بعمليات الجهاز العصبي المركزي. وبذلك يمكن تفسير السلوك والتنبؤ، - حسب فايجل - وهذا بالعودة إلى الفيزيولوجية .

نفهم مما سبق ذكره أن علم النفس الحديث والممثل في المدرسة السلوكية المتأثرة بالعلم الوضعي تسعى إلى إلغاء أية صياغة فرضية **Hypothèse** ميتافزيقية تحاول تفسير طبيعة المسارات النفسية أو العقلية والتي بإمكانها أن تصاحب سلوك الإنسان.(6)

أما الاقتصاد السياسي فلقد رأت الوضعية المنطقية أن الاقتصاد مادة خصبة قابلة لأن تصاغ صياغة علمية، أي أنه بالإمكان إخضاع الممارسة الاقتصادية للحساب. ويشير بيان حلقة فينا أنه جرى العمل منذ قرابة القرن على تخليص الاقتصاد من شوائب الميتافزيقا. ولا يشكل تطهير الاقتصاد من الميتافزيقا صعوبة بالنسبة إلى الوضعية، وهذا لأن بعض المفاهيم التي يتضمنها الاقتصاد مثل الاستيراد، والتصدير هي أقرب إلى الإدراك الحسي والواقع منه إلى التأمل. وبالإضافة إلى هذا ساد اعتقاد لدى أعضاء حلقة فينا أن العالم الغربي سيكون مضطرا لأسباب اقتصادية للاعتماد بدرجة كبيرة على التصنيع. وهذا سيؤدي حتما إلى تضاؤل الأفكار الميتافزيقيةوتزايد الاعتماد على العلوم الطبيعية، نظرا لحاجتنا الماسة إليها في تكنولوجيا التصنيع وبالتالي سيصبح الجو الثقافي العام ملائما أكثر لسيادة الطريقة العلمية في التفكير. وقد عمل " أتونيورات " (*)**otto neurath**، على نشر تصور أعضاء الفهم العلمي للعالم وتطبيقه في مجال الاقتصاد: أي عمل على إضفاء الصبغة العلمية على الاقتصاد السياسي، ويتجلى هذا في محاولته "أتونيورات" في التأثير على ستاليين "بإدخال الحساب والقياس على الماركسية وهذا لان الوضعية الممثلة في" أتونيورات" تعتقد أن الماركسية شبيهة في أسسها بما تدعو إليه الوضعية المنطقية، ذلك أن ماركس في حد ذاته حسب حركة- فينا – عمل بروح علميّة معادية للميتافزيقا.(7)

ولم يكن علم الاجتماع بمعزل عن هيمنة العلم الوضعي. فقد تم فيه الإعلان عن موت الإنسان والميتافزيقا، وهذا عندما بدأ علماء الاجتماع يتعاملون مع الظاهرة الإنسانية كمادة قابلة أن تسري عليها القوانين العلمّية من حساب وقياس وكم،مما أفقدها طابعها الروحي الإنساني. لقد

عمل الاتجاه العلمي في ميدان علم الاجتماع على تفكيك ما يوحد هذا العلم وهو الطابع الإنساني عن طريق تقسيمه إلى تخصصات متباينة أو إلى قطاعات. فلم يعد علم الاجتماع بناء على ما قرره التوجه العلمي سوي مجموعة قطاعات للحياة الاجتماعية مثل: علم اجتماع العمل علم اجتماع الأديان، علم اجتماع الفن...الخ.[8]

وهكذا تمت إعادة بناء كل من الاقتصاد، علم الاجتماع، علم النفس على أساس علمي مادي والغاية من ذلك هي إجتثاث الميتافيزيقا. إن التيار الذي يدعو إلى العلم وحده دون الأخذ بالمعارف الأخرى يتعدى حسب" لوكور" من وهم مفاده أن العلم بإمكانه أن يحقق التقدم، والأخذ بالمنهج العلمي يسمح في نهاية المطاف بتعميم تصور أعضاء فهم العلمي العالم في أن الفلسفة يجب أن لا تكون في مقدمة المعارف، وبهذه الطريقة لن يكون هناك مجال للحديث عن الفلسفة. بناء على ما سبق ذكره يحق لنا أن نتساءل: هل انتهت الفلسفة؟. وهل لم يعد للفلسفة اليوم من فضاء تمارس فيه نشاطها الفلسفي؟.

إن اللافت للانتباه أنه في الوقت الذي تعالت فيه أصوات مناهضة لحركة الفكر الفلسفي والداعية إلى نهايته أصبح هناك إلحاح على ضرورة عودة الفلسفة في ممارسة نشاطها النقدي والتنويري؛ وهذا على الرغم من النفي والإنكار الذي تعرضت له من قبل الاتجاه الذي يريد أن يخضع الفلسفة لخدمة المعرفة العلمية .إن العودة إلى الفلسفة يعني أن الإنسانية اليوم في وضع حرج وأن الإنسان المعاصر بدأ يشعر أن أسطورة الانتصار على الذات وعلى الطبيعة باتت تبعث مخاوف كبيرة وتثير أسئلة محيرة. والعودة إلى الفلسفة يعني التفكير في طبيعة التفكير الذي وصلت إليه الإنسانية اليوم لاسيما في ظل التقدم التكنولوجي، أي التفكير في القيم الجديدة التي طرحتها التكنولوجية، ذلك

بأن التطور التكنولوجي قد زعزع وأطاح ببعض القيم التي كان يعتقد أنها ثابتة. إن التفكير في القيم الجديدة يعني التفكير في امتدادات التقنية وقد تحولت إلى أداة تتحكم في الطبيعة وفي الإنسان، كما يعني هذا التفكير في انغلاقات البحث البيولوجي وانزياحه عن أخلاقيات العلم، ويعني أيضا التفكير في تلاعبات السياسة التي تمجد الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان في مكان وتطيح بها في مكان آخر.

إن عالمنا المعاصر أصبح يبعث على الشك والريبة أكثر مما يبعث على الطمأنينة. لهذا كله لم يعد هناك مناص من العودة إلى الفلسفة و من استمرار السؤال الفلسفي باعتباره « تنبيها ضروريا مستفزا للعبث والسكينة الوهمية والإشباع المكلس للذكاء».[9] وعليه فإذا لم يتسن للفلسفة أن تقود الفلسفة العالم كما ادعت الوضعية ذلك فإنها ستبقى دائما في هذا العالم فاعلة وقادرة على التنوير والتوجيه والتنبيه وخطابا شاملا يطال جميع نواحي الفكر.[10] ولعلّ ما يبين استمرار حضور الفلسفة وضرورتها اليوم بروز مواضيع جديدة[*] هي نتاج الحضارة المعاصرة من بين هذه الموضوعات نجد موضوع البيئة .

أ – مفهوم البيئة:

تعتبر البيئة أحد موضوعات الفلسفة المعاصرة. إن اهتمام الفلسفة بمجال البيئة هو تحد تواجهه الفلسفة والذي يفسر من جديد على أنها نمط من التفكير من الصعب تجاهله. ونجد تأكيدا لهذه الفكرة لدى "هانزيوناس"[*] فيلسوف و مؤرخ ألماني الذي يقر أن الحوار الفلسفي المعاصر يدور مضمونه حول أربع مسائل هامة وهي: البيئة، البيوتيقا، الهندسة الوراثية والطاقة.[11] يدّل هذا الإقرار على استمرارية السؤال الفلسفي وعلى تعايش هذا السؤال مع القضايا العامة التي تمس صميم الوجود الإنساني منها تلك المتعلقة بالبيئة.

لقد صارت الطبيعة تعيش اليوم حالة اغتراب نظرا للاعتداءات الكثيرة التي يمارسها الإنسان عليها بفضل التطور التقني والتي فاقت ممارستها من حيث طبيعتها ونطاقها ما كانت تمارسه

الأجيال السابقة. من هذا المنطلق أصبحت الحاجة إلى الفلسفة أكثر من ضرورية للحد من الاغتراب الذي يهدد الطبيعة والذي انعكس سلبا على الإنسان .

لقد اقترح "ارنست هيكل"[*] مصطلح الإيكولوجيا سنة1866، وهو مصطلح يوناني الأصل مركب من حدين (oikos)تعني المسكن و(logos)تعني العلم والمعنى الكامل لهذا المصطلح هو علم البيت la science de la maison يدل هذا التعريف في الثقافة اليونانية على المأوى لا على الطبيعة. غير أن "أرنست هيكل" استطاع أن يضفي على هذا المفهوم معنى بالغ الاتساع والجدة.

لقد كان العلماء في منتصف القرن التاسع عشر يدرسون النباتات والحيوانات كل واحد على جانب، ولم يكن هناك اعتقاد أنه توجد علاقة بينهما. لكن مع "أرناست هيكل" أصبحت دراسة الطبيعة تقتضي دراسة الكائنات الحية (الحيوان والنباتات) مع بعض حيث أن أية محاولة حسبه في إحداث قطيعة في العلاقة التي تربط تلك الكائنات الحية تؤدي إلى نتائج وخيمة على الطبيعة. انطلاقا من هذه الفكرة أصبحت تعني الايكولوجيا العلم الذي يدرس علاقة الكائنات الحية من حيث تغذيتها وتنفسها وطرق تواجدها إضافة إلى محاولة دراسة العوامل المؤثرة في العيش كالحرارة، الرطوبة...الخ.[12]

وما هو جدير بالذكر أن أرنست هيكل لم يذكر عند دراسته للبيئة الإنسان وإنما اقتصر اهتمامه على الحيوان والنبات فقط ولكن بدءا من سنوات السبعينيات بدأ الإنسان يذكر في النقاشات المتعلقة بالبيئة باعتباره جزءا من الطبيعة ومسؤولا عنها.ومن ثم لم يعد مشكل التلوث على سبيل المثال محصورا فقط في صحة الأسماك والحيوانات وفي الأنهار وإنما ينطبق على الإنسان أيضا. وبهذا اصطبغت البيئة بصبغة إنسانية بعد ما كانت محصورة في الحيوان والنبات.

وقد أصبحت عبارة الإنسان الإيكولوجي (L'homme écologique) دليلا على ارتباط الإنسان بالطبيعة على أساس أن صحته الجسدية والنفسية مرتبطة بمدى مسؤوليته اتجاه المحيط.[13] بناء على ما سبق ذكره نستنتج معنيين للبيئة :

المعنى الأول:ويتعلق بالبيئة الطبيعية، وهي الدراسة العلمية للحياة في وسطها الطبيعي ونقصد بذلك المظاهر التي لا دخل للإنسان في وجودها، مثل المناخ، الحيوانات، النبات، التضاريس، البحار، الصحارى، الأودية...الخ.

المعنى الثاني: البيئة المشيدة أي كل ما صنعه وأنجزه الإنسان، ومنه يقوم هذا المعني على الفعل المؤسس على الاعتقاد القاضي بأن الوسط البيئي لا بد أن يكون محميا من الأخطار الناتجة عن الإنسان والناتجة عن التقدم العلمي والتقني.(14)

لقد سبب التقدم العملي اختلالا في التوازن البيئي في العالم وانتشار الظواهر المضادة للحياة من تلوث شامل، تهديم الأغلفة الجوّية والقضاء على كثير من مظاهر الحياة كانقراض النباتات والحيوانات والحشرات. لقد انعكس التطور العلمي والتقني على المحيط وهو بدوره انعكس سلبا على صحة الإنسان.وفي هذا السياق أكدت الجمعية العالمية للبحث من أجل المحيط والصحة sires(*) أن المحيط يلعب دورا هاما في تكاثر الأمراض. إن المحيط يؤثر على صحة الإنسان وذلك على مستويين:

أ- **المستوى الأول:** يلعب المحيط دور المنبه للمريض(**facteur déclenchant**)، وهذا عن طريق الاعتداءات المتكررة من طرف الإنسان على المحيط الطبيعي، والنتيجة المترتبة على ذلك تلوث الهواء، الماء، اندثار المساحات الخضراء.

ب- **المستوى الثاني:** يلعب المحيط دورا مسهلا (**facteur facilitant**)، وذلك عندما تتضافر العوامل التي تسبب الضرر بالإنسان، التلوث، الضجيج...الخ.

وحري بنا في هذا السيّاق أن نذكر أن سبب اختلال التوازن البيئي وانتشار المرض يعزى إلى الفكر ذي التوجه المادي. لقد ألحق هذا التوجه ضررا بالطبيعة وأنشأ واقعا مغايرا ذهب عكس ما طمح إليه الإنسان، وهو العيش في بيئة متوازنة نظيفة وصحية. إن هدف هذا النمط من التفكير هو تحقيق المنفعة حتى لو كان هذا على حساب الطبيعة. ويظهر هذا جليا من خلال اهتمامه بمجال البناء وتمويل المشاريع السكنية على حساب المساحات الخضراء أو الغابات، واهتمامه بمجال النقل بحيث

حرص الفكر المادي على إنتاج السيارات والشاحنات والقطارات والترويج لها دون الاهتمام للأمراض الناتجة عن الغازات السامة المنبعثة من تلك الآلات. كما تركز اهتمامه على الزراعة الصناعية القائمة على مواد كيميائية لتسهيل عملية الإنتاج وتحقيق الربح.

لقد أخل الاقتصاد المادي بنظام البيئة التي لم تعد قادرة على حماية نفسها مما ينذر باحتمال وقوع كارثة بيئية أشد مما هي عليه الآن، فلم تعد البيئة قادرة على تجديد مواردها الطبيعية، واختل التوازن بين عناصرها المختلفة، ولم تعد هذه العناصر قادرة على تحليل مخلفات الإنسان، أو استهلاك النفايات الناتجة من نشاطاته المختلفة، وأصبح جو المدن ملوثا بالدخان المتصاعد من عادم السيّارات، وبالغازات المتصاعدة من مداخن المصانع، وأصبحت التربة الزراعية ملوثة نتيجة استعمال المكثف للمخصّبات الزراعية والمبيدات الحشرية. وحتى أجسام الكائنات الحية لم تسلم من هذا التلوث.

لقد أهمل الإنسان كثيرا البيئة وانشغل بتحقيق احتياجاته ومتطلباته وجرى وراء التكنولوجيا دون أن يتفطن إلى أن هذا يتسبب في الإخلال بالتوازن الطبيعي للبيئة، فساهم بذلك في تلوث الماء، والهواء وأفسد التربة الزراعية. وقضى على مظاهر الحياة في كثير من الأماكن. ونظرا إلى خطورة هذه الوضعية أصبحت الحاجة إلى التفكير في حل يقلل من الخطر الذي يهدد البيئة أمرا في غاية الضرورة، أي التفكير في سياسة إيكولوجية تحترم الطبيعة وتعمل على الحفاظ على صحة الإنسان. كما تعمل على رفع التحدي من أجل إقامة عالم جديد أقل تكلفة وأقل تبذيرا، وعلى توعية أرباب العمل والشعب من المخاطر الناجمة من المغالاة في عملية التصنيع وإجبارهم في الوقت نفسه على تقبل معايير جديدة قائمة بالدرجة الأولى على مبدأ الاحترام والمسؤولية.[15]

إن الفلسفة هي وحدها التي يمكن أن تقوم بهذا الدور التوجيهي، التحسيسي والتنويري. وهي بأسئلتها الأخلاقية الدائمة تحاول أن توقظ ضمير العالم وضمير من يعبثون بالطبيعة وبالإنسان. من هذا المنطق فإن الفلسفة الإيكولوجية ومن جملة المعاني التي تتضمنها تعني إعلان السلام العالمي أو السلام الأخضر بين أبناء الكون كلهم، كما تعني الحق في العيش في بيئة نظيفة ونقية، والتمتع بهواء الطبيعة،وسلامة الجسد وبالمناظر الجميلة والتحرر من مخاطر التكنولوجية الخانقة. ونعني في الوقت

نفسه مسؤولية الإنسان اتجاه المحيط وتتمثل هذه المسؤولية ليس في التفكير في وضع حلول آنية ومؤقتة وإنما التفكير في بيئة مستديمة. ذلك أن المسؤولية تحتم التفكير حتى في الأجيال القادمة**future génération** وفي نوعية الحياة التي سوف نورثها لهم، والمشاكل البيئية التي سوف يواجهونها. تلك المشاكل هي نتيجة أخطاء.

إن فلسفة البيئية هي التفكير في وضع معايير أخلاقية صارمة للإنسان في علاقته بالطبيعة بسنها مبدأ الاحترام بالدرجة الأولى.[16] كما تعني الفلسفة الإيكولوجية حسب" أرنه نيس **Arne Naesse**" فيلسوف نرويجي ذلك الفكر الذي يحاول إضفاء الطابع الإنسي على الطبيعة عن طريق تقليص الهوة التي تفصل الطبيعة عن الإنسان. ومن وجهة النظر تسعى هذه الفلسفة إلى إدماج الإنسان في الطبيعة وتعميق تلك العلاقة، لأن الحياة الجديرة بأن تعاش حسب "أرنه نيس" هي الحياة التي يتعايش فيها الإنسان الطبيعة معا. إن الطبيعة في منظور "أرنه نيس" منبع الجمال ومصدر الحكمة حيث يتأمل فيها الإنسان ذاته والعالم من حوله والمكان الذي يستطيع أن يتخلص فيه الإنسان من أنانيته وفردانيته.

إن الفلسفة بوصفها نشاطا إنسانيا تهتم بالقضايا التي تمس صميم الإنسان ومادامت هي كذلك فالمهمة كما يقول "يوناس" «توكل إليها ولا أن تختزل كما أريد لها إلى تمرين منطقي وتحليلي: «تحليل لغة العلم».[17]

يعيش العالم اليوم حسب "يوناس" حالة إيكولوجية خطيرة، وهذا نتيجة التطور الصناعي والتقني، إذ فرض هذا التطور المذهل والمخيف في الوقت نفسه سلوكيات جديدة وموضوعات جديدة ونتائج جديدة لم تكن تعرف سلفا[18]. إن هذا التطور من وجهة نظر "يوناس" سابقة في التاريخ الإنساني، إذ لم تعرف المجتمعات القديمة مثل هذا الزخم العلمي والتكنولوجي الذي أحدث خللا في النظام البيئي، فقد عاشت المجتمعات القديمة في بيئة يسودها النظام والاستقرار فلم تعتد على الطبيعة ولم تفسدها بل على خلاف هذا كانت تسعى إلى حماية البيئة والمحافظة عليها وعلى التناسق والانسجام الدائم لها. إن الطبيعة كما يرى "يوناس" كانت في أيدي

أمينة، أما الإنسانية اليوم فإن لها من القوّة المادية والتقنية والعلمية والمعنوّية ما يمكنها أن تهدد وتعبث باستقرار النظام البيئي. وهذا لأن قدر الكوكب كما يقول« بين أيدي من يملكون التكنولوجية».[19]

إن المجتمعات المعاصرة حسب "يوناس" تعيش حالة خطيرة من جرّاء التهديدات المتواصلة على الطبيعة الأمر الذي جلب البؤس والتذمر، فكثرت الأمراض وانتشرت الأوبئة وقل الاهتمام بالطبيعة. يرجع "يوناس" سبب ذلك إلى لا مبالاة الإنسان بالأخطار التي تهدده نفسيا وجسديا وتهدد مستقبله،وإلى لامبالاة رجل السياسة الذي يحمله "يوناس" سبب تدهور البيئة.

وما هو جدير بالذكر أن "يوناس" لم يقف موقفا مضادا من التطور العلمي والتقني، وإنما يحذر من الغلو والتمادي في التطور الصناعي والتقني على حساب الطبيعة والإنسان وفي هذا يقول:

أنا لا أنتقد التقنية ولا الحضارة التقنية كما هي

ولا أعتبرها بمثابة انحراف الإنسانية، الواجب

الوقوف ضدها، أنا بصدد عرض ما يحدث.

و النتائج المرتبة على ذلك[20].

لا يقف"يوناس" ضد المنجزات العلمية ولا ضد الإنتاج الصناعي فهو لا يقف على سبيل المثال ضد السيّارات،وإنما هو ضد ما يصدر من هذه السيارات من غازات تؤثر سلبا على الإنسان وعلى الطبيعة.وباعتباره فيلسوفا فهو يخاطب الضمير العالمي،يحاول تحسيس المجتمعات، الناس، أرباب العمل، ورجال السياسة من خطورة الوضع ويحثهم على الاهتمام بالطبيعة وبالإنسان وعلى إيجاد الطرق الأكثر نجاعة في التقليل من المخاطر التي تهدد البيئة، يخاطب "يوناس" الإنسان بوصفه المسؤول الأول عما آلت إليه الإنسانية. لقد صنع الإنسان وسائل تسمح له بالقضاء على نفسه وعلى مستقبله، يقول "يوناس": «لقد أصبحنا نحن البشر نشكل أكبر خطر على الطبيعة أكبر مما كانت تشكله هي علينا، أصبحنا خطرا على أنفسنا...ولهذا لا بدّأن نقاوم».[21]

تعيش الإنسانية حسب "يوناس" في مفارقة كبيرة، فلقد حوّل التقدم العلمي والتقني الإنسانية من حالة سيطرة الطبيعة على الإنسان وخوفه منها وعبادتها إلى حالة سيادة الإنسان على الطبيعة. هذه المفارقة تستدعي من وجهة نظر "يوناس" التفكير مليا وبصفة جدّية ومسؤولية في مسؤولية الإنسان إزاء ما يبدع وما يخطط وما ينتج وما يخلف من آثار. وبهذا المعنى فإن الإنسان هو وحده المسؤول عن هذه المفارقة التي وضعت الإنسانية اليوم في مأزق إيكولوجي وصحي خطيرين.

إن الإنسان حسب "يوناس" هو نتاج ما ما يقدم من أعمال، لهذا على الإنسان مهمة البحث عن كيفية تقليص أخطار التطور العلمي والتقني. انطلاقا من هذه الفكرة يحث" يوناس" الإنسان على أن لا يخضع مصيره ولا أن ينخدع بهذه الحتمية(*) التي هي من نتاج حريتنا، وإنما عليه كشف عيوبها وإصلاحها حتى يضمن سلامته وسلامة محيطه. إن على الإنسان أن يعيد النظر فيما تعلم وما يعرف وما يظن أنه يعرف. بناء على هذا يرى "يوناس" في العودة إلى الفلسفة أمرا في غاية الأهمية فهي بوصفها خطابا توعويا وتربويا وما تملكه من براهين وحجج ومن وضوح الرؤية بإمكانها أن تساهم في التقليل من خطر الإنسان الذي يش كل خطرا على الإنسان وعلى الطبيعة. إن الفلسفة ومن وجهة نظر"يوناس" تبعث في الإنسان روح المسؤولية. إنها تخاطب وعيه وشعوره وتوجه سلوكه عن طريق المساءلة و النقد والإرشاد، وإنها تعلمنا كيف نحترم أنفسنا ونحترم الآخر واحترام محيطنا أي الطبيعة. ومن وجهة النظر هذه يكون في استطاعة الفلسفة التقليل من المخاطر التي يشهدها عصرنا عن طريق التربية.(22)

يرى"يوناس"أن الإنسان مزود بالمعرفة ومن وجهة أخرى بالتجربة، وباعتباره كائنا حرا فبامكانه الاختيار بين موقف وموقف آخر، وبين فعل وفعل آخر أو بين رأي ورأي آخر. انطلاقا من هذه الفكرة تنبثق مسؤولية الإنسان. إن الإنسان المعاصر مسؤول عن ما أنتجه من كوارث تهدد البيئة.وفي سياق حديثه عن المسؤولية يرفض "يوناس" أن تكون فكرة الواجب التي تحدد مسؤولية كل إنسان قائمة على مبدأ المنفعة، لأن هذا المبدأ يخفي دوافع أنانية ولا تهدف إلى الصالح العام. إنه يدعو إلى أن تكون فكرة الواجب قائمة على مصلحة أعم وأشمل.

يرفض "يوناس"أن يقوم الواجب الذي يحدد مسؤوليتنا على فكرة التبادل (**la reciprocite**) والتي مفادها أن واجبي هو الصورة التي يرى فيها الآخر حقا من حقوقه، وهذا الآخر الذي بدوره يرى حقا من حقوقي يكمن في الواجب الذي يقوم به هو.يرفض "يوناس" هذا النوع من المسؤولية لأنها لا تنطوي على مصلحة أعم وأشمل وإنما على مصلحة ظرفية ومؤقتة، فإذا ما انتهت هذه المصلحة وحقق الناس غايتهم تخلوا عن حقوقهم وواجباتهم أي عن مسؤوليتهم.

يرى "يوناس" أن المبدأ القائم على فكرة التبادل لا ينطوي على أنانية مضمرة فحسب وإنما على رؤية محددة وظيفة للمستقبل فرضتها الحسابات الضيقة والمصالح المتبادلة. لهذا يرفض "يوناس" أن تكون المسؤولية قائمة على أساس فكرة الحقوق والواجبات، ونجد تأكيدا لهذا في قوله« يجب أن يكون مبدأ المسؤولية مستقلا عن كل فكرة مؤسسة على الحق أو المبادلة. إن ما يجب حسب يوناس أن يحكم ويوجه ويربط العلاقات الإنسانية ليست فكرة الحق والواجب»، وإنما الالتزام الأخلاقي الذي يضمن سلامة مستقبل الإنسان والطبيعة. إن الأخلاق هي التي تدفعنا إلى احترام بعضنا واحترام ما حولنا أي الطبيعة وهي التي تدفعنا على تهذيب سلوكنا وتوعية ضميرنا اتجاه الطبيعة. إن الأخلاق حسب "يوناس" هي التي تجبرنا على التخلص من المصالح المؤقتة الآنية والتفكير في الشروط والإمكانيات الممكنة والتي بواسطتها يمكن ضمان سلامة الأجيال القادمة. يسمي "يوناس" هذا النوع من التفكير أو الأخلاق بأخلاق المستقبل والتي من بين أوليتها الاهتمام بأجيال المستقبل. من هذا المنطق يرى "يوناس" أن الفلسفة بجانبها الأخلاقي عليها أن ترسخ في الإنسان مواقف ثابتة وشاملة مواقف أقل شراهة (**avide**) وأقل طمعا (**cupide**) مواقف متوازنة ومعتدلة.[23]

الهوامش:

1 - نقلا عن وداد الحاج حسن، ردولف كارناب نهاية الوضعية المنطقية،دار البيضاء، المركز العربي، 2001 ص. 101 .

2- المرجع نفسه، ص. 101.

3 - Rudolf Carnap, l'ancienne et la nouvelle logique , trad : Ernest Vuillemin, (Paris : Librairie Hermann Cie Editeurs, 1933), p.1.

4 - , Le Problème De La Logique Et La Science, trad : Ernest Vuillemin, (Paris : Librairie scientifique Hermanne, Cie Editeurs, 1935), p. 1.

5 - Dominique Le Court , A quoi sert donc la philosophie, Paris, delta et sonten cola, 1996?. p. 42.

6 - من بيان حلقة فينا ضمن كتاب وداد الحاج حسن، ردولوف كارناب و نهاية الوضعية المنطقية ، ص ص. 291،292

7 – المرجع نفسه، ص 291 - 292

8 - المرجع نفسه.ص 291 – 292

9 – عبد القادر المذنب، الفلسفة فكر و بيداغوجيا.ص8

10 – المرجع نفسه ، ص 8

11–Hans Jonas, une éthique pour la nature,trad :Sylvie coutrine damany, (Paris : desclee de bouwer ,2000), p141 .

12- أرنست هيكل 1834-1919) **Haeckel Ernest Heinrich)** بيولوجي ألماني درس الطب والعلوم الطبيعية تحصل على شهادة الدكتوراه سنة1857. تعرف على شارل داروين وأصبح واحدا من مريده جل كتبه وأبحاثه تنصب حول تطور الكائنات الحية.

13 - David Burnie , tout ce que vous voulez savoir sur l'écologie, (Paris : Le persaux clercs,2000), p. 6.

14 - Philips Saint-Marc, l'écologie au secours de la vie,un medcin pour demain , (Paris : Frison-Roche, 2004), p. 10.

15- Ibid , p. 7.
16- Stavros Dimas, « sur l10'environnement l'Europe a un devoir moral », l'usine nouvelle, n0 3041, février , 2007,p p. 26,27.
17 - Michel Metayer, La philosophie Ethique enjeux et débats actuels ,pp. 239‹255
18 - Hans Jonas ,Une Ethique pour la nature ,p. 15.
19 - Hans jonas , Principe responsabilité une Ethique pour la civilisation, technologique, trad : -Jean greish, (Paris : Cerf, 1990), p.
20 - Ibid., p. 30.
21 - Hans Jonas , Une éthique pour la nature, p .119.
22 -Ibid., , p. 140
23 - Hans Jonas, Une Ethique pour la nature , p .27.
24 - Hans Jonas, Une Ethique pour la nature , p 87.